

## إريك هوبسباوم\*

### مزايا الشتات اليهودي\*\*

ولد هوبسباوم في الإسكندرية سنة 1917، وتلقى علومه في فيينا وبرلين ولندن وكامبردج. كان حتى سن التقاعد أستاذاً في كلية "بيركبك" في جامعة لندن، ومن ثم التحق أستاذاً في "المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي" في نيويورك. اكتسب شهرته الواسعة من أعمال تاريخية تركزت في معظمها على القرن التاسع عشر مثل: "عصر الثورة، 1789 – 1848"؛ "عصر رأس المال، 1848 – 1875"؛ "عصر الإمبراطورية، 1875 – 1914"؛ "عصر التطرف: القرن العشرون القصير، 1914 – 1991". كما له عدة كتب في مجال تاريخ الطبقات العاملة وتاريخ الثورات في الأرياف والتأريخ العام.

لم يُعرف هوبسباوم باهتمامه بالتاريخ اليهودي تحديداً. ومن هنا أهمية هذه المقالة بالذات التي يرسم فيها صورة تاريخية واسعة للشتات اليهودي وعلاقاته المتقلبة بالعالم الأوسع. وقد كان لهذه المقالة وقع كبير في إسرائيل، لكنها لم تصل بعد إلى الجمهور العربي.

وكان بعض اليهود وغيرهم تطرقوا إلى مثل هذا الموضوع، وصولاً إلى نتيجة مشابهة لما وصل إليه هوبسباوم في الفقرة الأخيرة من مقالته. بل إن أحد ألمع المؤرخين العرب المسيحيين في العصور الوسطى، أي ابن العبري، المتوفى سنة 1286 للميلاد (وهو من أصل يهودي!) يقول لنا ما يلي:

*العبرانيون لمفازتهم باقي الأمم حرموا تعلم الحكمة مقتصرين على علوم الشرائع وسير الأنبياء... فلما تفرقوا في البلاد وداخلوا الأمم تحركت همم قليل منهم لطلب العلوم النظرية... فقال أفراد منهم ما شاقوا من فنون الحكمة. (أبو الفرج بن العبري، "تاريخ مختصر الدول"، تحقيق أنطوان صالحاني، بيروت 1890، ص 35)*

غير أن ما نجده هنا هو تحليل واسع وعميق للتاريخ اليهودي في أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، على يد مؤرخ يهودي لامع ومتخصص بهذين القرنين. من هنا أهمية ما يقوله عن الانفتاح والانغلاق في التاريخ اليهودي الحديث. وإذا كان لنا ما نضيفه في هذا الصدد فهو إغفال الكاتب شبه الكامل للتاريخ الفكري اليهودي المزدهر داخل الحضارة العربية الإسلامية في عصور ما قبل الحداثة، واختزاله فقط بموسى ابن ميمون.

إن أغلبية الأعمال الأدبية عن التاريخ اليهودي تعالج، ومن دون استثناء تقريباً، التأثير الهائل للعالم الخارجي في اليهود الذين هم بلا استثناء تقريباً أقلية صغيرة من السكان. ما يهمني هنا هو تأثير اليهود في باقي البشر، ولا سيما التطورات المتفجرة لذاك التأثير في القرنين التاسع عشر والعشرين؛ أي منذ بداية التحرر والتحرر الذاتي لليهود في أواخر القرن الثامن عشر.

عاش اليهود، خلال الفترة ما بين طردهم من فلسطين في القرن الأول للميلاد وبين القرن التاسع عشر، ضمن المجتمع الأوسع للأغيار فاكْتَسَبُوا لغات هؤلاء الأغيار، وطوروا أنماط الطعام لتلائم متطلباتهم الشرعية. لكنهم

نادراً ما استطاعوا، بل ما رغبوا في المشاركة في الحياة الثقافية والفكرية في تلك المجتمعات الأوسع. من هنا فإن مساهمتهم الأصلية في تلك الحياة كانت هامشية، حتى في تلك الحقول التي أضحت فيها هذه المساهمة، ومنذ التحرر، عظمة الشأن. ولم يكن لهم دور ذو شأن سوى كحلقة وصل بين الثقافات، وخصوصاً بين العالمين الإسلامي والغربي المسيحي خلال العصور الوسطى الأوروبية.

تأمل، مثلاً، حقلاً من حقول الإنجاز اليهودي الذائع الصيت؛ أي حقل الرياضيات. ليس ثمة أية تطورات ذات شأن في حقل الرياضيات الحديثة التي ترتبط بأسماء يهودية حتى القرن التاسع عشر، على ما أعلم. كما أننا لا نعث على أية تطورات بارزة قام بها رياضيون من اليهود، ومن ثم اكتشفها العلماء الرياضيون في العالم الأوسع لاحقاً، كما هي الحال مثلاً مع الرياضيات الهندية ما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر المكتوبة باللغة الملايالية (Malayalam)، والتي كانت مجهولة حتى النصف الثاني من القرن العشرين. أو تأمل الشطرنج مثلاً؛ فقد كان الخوض فيه أمراً مكروهاً لدى السلطات الدينية عامة، ولدى موسى ابن ميمون خاصة، لكونه يصرف الانتباه عن دراسة الشريعة. فلا غرابة إذاً أن يكون اليهودي الفرنسي هارون إسكندر (1766 – 1850)، أول لاعب يحظى بسمعة واسعة في هذا الحقل، وأن تكون حياته متزامنة مع عصر التحرر.

هذا الانعزال أو الانغلاق داخل "الغيتو"، مفروضاً كان أو مختاراً، كان في الأوج بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر. وقد ازداد تشدداً بعد سنة 1492 حين تم طرد اليهود الذين رفضوا التحول عن دينهم من الأراضي الإسبانية، بمن فيهم أيضاً يهود إيطاليا. وأدى هذا الأمر إلى تقلص فرص التواصل الاجتماعي والفكري مع غير اليهود، ما عدا تلك التي نجمت عن النشاطات الحرفية التي ربطت اليهود بالعالم غير اليهودي. بل من الصعب أن نستذكر اليهود في تلك الأزمنة ممن كانت لهم المكانة الاجتماعية التي تتيح لهم التواصل الفكري مع أهل العلم من غير اليهود، وذلك خارج التجمع اليهودي الأكبر الباقي في الغرب؛ ونعني به الجالية السفارادية في الغالب، التي استوطنت مدينة أمستردام. إذ إن السواد الأعظم من اليهود كانوا إما ملزمين بالسكن في الغيتوات، وإما ممنوعين من السكن في المدن الكبرى حتى زمن متقدم من القرن التاسع عشر.

وكما يقول جاكوب كاتس في كتابه "الخروج من الغيتو" (1973)، فإن العالم الخارجي في ذاك العصر "لم يكن يحتل حيزاً كبيراً في التفكير اليهودي". إن التدوين المفصل للقوانين المتعلقة بممارسة الأورثوذكسية كانت هي التي تمثل الديانة في مجلدات ذلك العصر، وأهمها السُفر المسمى "شُلْخان أروخ"، الأمر الذي عزز الانعزال. أمّا النمط التقليدي للنشاط الفكري اليهودي، أي التأويل الوعظي للكتاب المقدس والتلمود، وتطبيق ذلك على مجريات الحياة اليهودية، فلم يتركها مجالاً يذكر لأي شيء آخر. وكانت السلطات الحاخامية تحظر الفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها من العلوم ذات المنشأ غير اليهودي، بما في ذلك اللغات الأجنبية، وذلك في مجاهل مقاطعة فولهينيا. ولعل المثال الأبرز لتلك الفجوة بين العوالم الفكرية يكمن في أن مناصري التحرر، وهم قلة لدى اليهود الشرقيين، كانوا يشعرون بالحاجة إلى ترجمة جميع الكتب المتداولة في أوساط المثقفين من غير اليهود إلى اللغة العبرية، كإقليدس مثلاً، أو ككتب علم المثلثات أو الجغرافيا أو الإثنوغرافيا.

إن التباين الواضح بين الحال السائدة ما قبل التحرر وما بعده أمر مدهش حقاً. فبعد مرور عدة قرون كان من الممكن خلالها أن يُكتب التاريخ الفكري والثقافي للعالم، ناهيك عن التاريخ السياسي، من دون أية إشارة تقريباً إلى مساهمة اليهود المعترف بهم لدى الأوساط الأورثوذكسية، باستثناء ربما موسى ابن ميمون، وإذ بنا نلج مباشرة إلى العصر الحديث حيث الأسماء اليهودية لها تمثيل لا يتكافأ مع عدد اليهود في العالم. فالأمر يشبه الغطاء الذي يُرفع عن القدر ذات الضغط. وعلى الرغم من ذلك، فإنه يجب ألا نغتر ببعض الأسماء البارزة، مثل

هاينه ومندلسن - برثولدي وريكارديو وماركس ودزرائيلي، كما بالأوساط المزدهرة لليهود مثقفين أغنياء في بعض العواصم المحظوظة، وفي برلين على وجه الخصوص. عند نهاية الحروب النابوليونية كان السواد الأعظم من اليهود الأشكناز ما زالوا غير مندمجين في مجتمع الأغيار في ألمانيا، كما في هولندا وإمبراطورية آل هابسبورغ، سوى في المجال الإداري بصفتهم رعايا لهم أسماء مدنية، وهو تطور جديد للغاية. وحتى العائلات المرموقة لم تكن وصلت إلى نهاية الطريق، إذ إن والدته كارل ماركس، مثلاً، لم تكن يوماً مرتاحة إلى التخاطب بالألمانية الفصحى. أمّا الجيلان الأولان من عائلة روتشيلد فكانا يتراسلان بلغة اليهود الألمانية (Judendeutsch) المكتوبة بالأبجدية العبرية. أمّا اليهود في أرياف أوروبا الوسطى في إمبراطورية هابسبورغ فقد ظلوا غير متأثرين بالتححر حتى أربعينيات القرن التاسع عشر على أقل تعديل، وذلك بعد أن أضحت الهجرة إلى المدن ممكنة، وإلى ما بعد ذلك التاريخ بزمان طويل فيما يختص بمقاطعة غاليسيا والقرى اليهودية الروسية الصغيرة (shtetls) وحتى في أميركا، فقد ورد في بحث للكاتب ستيفن ثيرنستورم في "موسوعة هارفرد للمجموعات الإثنية في أميركا" ما يلي: "حتى فترة متقدمة من القرن العشرين فإن أغلبية المهاجرين كان في إمكانها أن تستعيد إلى الذاكرة مجتمعاً يهودياً تقليدياً، أو كانت أتت هي بالذات من مجتمعات كهذه." أمّا أغلبية اليهود السفارادية فقد بقيت داخل مناطق منعزلة عرقياً. وفي واقع الأمر، لديّ شكوك فيما يتعلق بإمكان العثور على أية أمكنة قبل الثورة الفرنسية حيث كانت الأغلبية من اليهود، وليست النخبة فحسب، مندمجة في المجتمع الأوسع، وتتكلم مثلاً اللغة المحكية المحلية بشكل منتظم بين أفرادها، سوى بعض الجوالي المهاجرة الصغيرة في فرنسا وهولندا، والجوالي القديمة العهد في شمال إيطاليا وجنوب فرنسا.

لذا فإن عملية التححر اليهودي لا تشبه النبع الذي فار بشكل مفاجئ بقدر ما تشبه الجدول الصغير الذي تحول بسرعة إلى نهر جبار. وقد عمدت إلى تصنيف علماء الرياضيات والفيزياء والكيمياء الواردة أسماؤهم في "الموسوعة اليهودية"، وذلك استناداً إلى تواريخ الميلاد. فوجدت أن عالماً واحداً فقط بين تلك الأصناف الثلاثة يرجع تاريخ ميلاده إلى ما قبل سنة 1800، وأن واحداً وثلاثين منهم ولدوا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وأن مئة واثنين وستين منهم ولدوا في النصف الثاني من القرن ذاته. (أمّا المنحنى المتطابق في الطب فلم يكن له مثل ذلك القدر من التفاوت، إذ إنه كان يمثل المجال الفكري الذي برز فيه اليهود في العالم الأوسع قبل عصر التححر) ولا حاجة تدعو للتأكيد هنا أننا مهتمون بالجنح الأشكنازي لليهود في غالب الأمر، وهو الجنح الذي أضحى يمثل الأغلبية العظمى والمتنامية من اليهود في العالم، كما يمثل على الوجه الأخص التحول المتعاطف نحو الاستيطان في المدن. فقد ارتفع عدد اليهود في فيينا من أقل من أربعة آلاف في سنة 1848 إلى مئة وخمسة وسبعين ألفاً عشية الحرب العالمية الأولى.

من المهم لنا ألا نستخف بالتأثير الصادر عن نخب صغيرة من أصحاب الثروة والعلم، ومنها مثلاً العائلات اليهودية في برلين في أوائل القرن التاسع عشر، وعددها أربعمئة وخمس عائلات. إذ إن المجتمعات الليبرالية ما قبل الديمقراطية بُنيت لمصلحة مثل هذه الفئات. وهكذا فإن اليهود الإيطاليين، وعلى الرغم من أنهم كانوا يمثلون 0.1% من عدد السكان، قد يمثلون 10% من الناخبين بموجب قانون الانتخاب الإيطالي. ففي سنة 1851، على سبيل المثال، ضُمن انتخاب كافور في مملكة السافوي من خلال أصوات الناخبين اليهود. وقد يفسر هذا الأمر الانبعاث السريع لليهود وظهورهم على مسرح الأحداث العامة في غرب أوروبا ووسطها. وعلى ما أعلم، لم يكن لليهود وجود يذكر في إبان الثورة الفرنسية، أو في أوساط مؤيديها في أوروبا، سوى داخل الأوساط البورجوازية في هولندا، كما هو متوقع. غير أنه، ومع مجيء ثورات 1830، أضحى الوجود اليهودي في السياسة الفرنسية، وخصوصاً في "الميدي (Midi)"، أمراً يصعب تجاهله. والشئ نفسه قد يقال عن ألمانيا وشمال إيطاليا، حيث نجد أن سكرتير مازيني، كما الكثير من أنصاره ومموليه كانوا من اليهود. وحينما نصل إلى سنة 1848 يصبح الوجود

اليهودي بارزاً للغاية. فعلى سبيل المثال، يصبح كريميو، وعلى الفور، وزيراً في الحكومة الثورية الفرنسية الجديدة، بينما يصبح دانيال مانين زعيماً للبنديقية في إبان ثورتها. ونجد ثلاثة يهود أعضاء بارزين في المجلس التأسيسي في بروسيا، وأربعة آخرين في برلمان فرانكفورت (كان الرجل الذي أنقذ من الضياع الخاتم الأكبر لهذا البرلمان، بعد انفراط عقده، من اليهود، وقد أعاد الحفيد البريطاني لذلك الرجل الخاتم المذكور إلى الجمهورية الفدرالية قبل بضعة أعوام). وفي فيينا كان طلاب الجامعة من اليهود هم الذين أطلقوا الدعوة إلى ثورة آذار/مارس. وكان بين الأشخاص التسعة والعشرين ممن وقعوا بيان الكتاب من أهل فيينا ثمانية أسماء يهودية. أما لائحة مترنيخ، المتضمنة أسماء "المخربين" في بولندا النمساوية، فهي لا تشمل أسماء يهودية واضحة. غير أنه، وبعد مرور أعوام قليلة، نجد اليهود في بولندا يجاهرون بحماسة لهم حرية بولندا، كما نجد حاخاماً تم انتخابه إلى الرايخستاغ الإمبراطوري جالساً ضمن كتلة النواب البولنديين. ففي أوروبا ما قبل الديمقراطية كانت السياسة، بما فيها السياسة الثورية، تتبع فريقاً صغيراً من المثقفين.

لم يكن ثمة شك، في أذهان قادة التحرر، في ضرورة القيام بتغييرين اثنين: أولهما التحول نحو العلمانية، وثانيهما تعلّم واستخدام اللغة الوطنية بانتظام؛ ويُفضّل، وإن لم يكن بالضرورة، أن تكون تلك اللغة لغة ثقافة مكتوبة ومقبولة. (لنذكر مثلاً حماسة اليهود لتبني اللغة المجرية في هنغاريا) وعندما أقول "التحول نحو العلمانية" فأنا لا أعني ضرورة التخلي عن الدين اليهودي على الرغم من الطفرة التي حدثت في صفوف المتحررين في ذاك الاتجاه، إن عن قناعة أو لأسباب عملية. وإنما أعني أن الدين لم يعد ذاك الإطار الشامل والمحيط بنواحي الحياة كافة. وبدلاً من ذلك، أضحى الدين على الرغم من أهميته لا يحتل سوى حيزاً واحداً من الحياة. هذا النمط من التحول نحو العلمانية سمح بالتزاوج أو الشراكة بين نساء يهوديات متعلّقات وبين الأغيار، الأمر الذي كان من شأنه أن يؤدي دوراً مهماً على الصعيد الثقافي، كما في السياسة اليسارية لاحقاً. إن العلاقة بين تحرر المرأة والتحرر اليهودي عامة هي موضوع مهم جداً.

لم يصبح التعليم الابتدائي، الذي كان بالضرورة باللغة المحلية، إلزامياً وشاملاً سوى في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، على الرغم من أننا يمكن أن نفترض أن معرفة القراءة والكتابة أضحت تشمل الناس جميعاً في أرجاء عظمى من ألمانيا عند أواسط القرن. فبعد سنة 1811 أصبح من الصعب على صبي يهودي أن يتفادى نظام التعليم العام، كما لم يعد من الملزم تعلّم الأبجدية العبرية في مؤسسة تقليدية كما بقيت الحال في أوروبا الشرقية. فإلى الغرب من الحدود الروسية والبولندية النمساوية، لم تعد المدرسة الابتدائية الدينية (الحيدر) تنافس المدرسة العلمانية. لكن التعليم الثانوي بقي محصوراً جداً خلال ذاك العصر بأسره، إذ كان يتراوح عند أواسط القرن بين أقل من 0.1% في إيطاليا وبين أقل من 2% في بروسيا لدى فئات الأعمار ذات الصلة. أما التعليم الجامعي فقد كان محصوراً على درجة أشد من ذلك. وللمصادفة، فقد ساهم هذا الوضع في تعزيز الفرص المتاحة لأولاد الفئات الصغيرة الثرية ثراء لا يتلاءم مع أعدادها، كاليهود مثلاً، وخصوصاً بسبب المكانة العالية التي كان العلم يحتلها لديهم. هذا هو السبب من وراء بلوغ حصة اليهود مداها الأقصى في التعليم العالي البروسي في سبعينيات القرن التاسع عشر.

كان التخاطب والقراءة والكتابة باللغة ذاتها التي يستخدمها المثقفون من غير اليهود هي الشرط الذي لا بد منه للولوج إلى الحضارة الحديثة، كما كانت الوسيلة الفورية لإبطال الانعزال. غير أن الحماسة التي أبدتها المتحررون اليهود حيال اللغة الوطنية، كما ثقافة البلاد غير اليهودية حيث كانوا يقطنون، كانت حماسة زاد في حدتها أنهم في كثير من الحالات لم يكونوا كمن يدخل نادياً عريقاً في القدم، بل نوادي حيث كان في وسعهم أن يعتبروا أنفسهم من الأعضاء المؤسسين. فقد تم تحرر اليهود في زمن كان فيه الأدب الكلاسيكي الألماني والمجري والبولندي يبرز

إلى الوجود، إلى جانب مدارس الموسيقى الوطنية المتعددة. هل يمكننا أن نتصور موقعاً أقرب إلى آخر ما وصل إليه الأدب الألماني آنئذ من ذلك الذي كانت تحتله الأوساط المحيطة براحيل فارنهاغن في برلين في أوائل القرن التاسع عشر؟ ولنتذكر أيضاً ما قاله ثيودور فونتين عن أحد اليهود المتأججين حماسة للتحرك: "لا نجد أي اهتمام حقيقي بالأدب الألماني سوى في المنطقة التي يقطنها هذا الرجل". وبعد ذلك التاريخ بجيلين أو ثلاثة، وبأسلوب ذاته تقريباً، "وقع المتحررون الروس من المثقفين في غرام الثقافة الروسية غراماً مجنوناً ومشيناً" - على حد قول جابوتنسكي. فقط على الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط (Levant) المتعدد اللغات، كان غياب الثقافات اللغوية الوطنية يجعل التحول اللغوي أمراً أقل أهمية. ففي ذلك الإقليم، وبفضل مؤسسة الأليانس (سنة 1860) تلقى اليهود من ذوي الميول العصرية تعليمهم باللغة الفرنسية، على الرغم من استمرارهم في التخاطب باليهودية الإسبانية أو العربية أو التركية، حتى وإن لم يستمروا في الكتابة بتلك اللغات.

بين كل اللغات التحررية كانت الألمانية أهمها على الإطلاق، وذلك لسببين. فعلى امتداد نصف مساحة أوروبا، أي من برلين وصولاً إلى أعماق روسيا الكبرى، ومن الإقليم السكندنافي وصولاً إلى بحر الأدرياتيك وأعماق البلقان، كان الطريق المؤدي من التخلف إلى التقدم، ومن الإقليمية الضيقة إلى العالم الأوسع، مرصوفاً بالأدب الألمانية. ونحن نميل إلى نسيان هذا الأمر. كانت الألمانية هي المدخل إلى الحداثة. والمثال الأروع لذلك هو قصة كارل إميل فرانزوس المعنونة "شيلر في بارناو"، والتي كُتبت بمناسبة مرور مئة عام على مولد شيلر؛ هذه القصة التي أضحت بمثابة الصوت الكلاسيكي للتحرك الخلقي والسياسي عند قراء الألمانية العاديين في القرن التاسع عشر. تروي القصة كيف أن نسخة صغيرة الحجم ورديئة الطباعة من ديوان أشعار شيلر أصبحت السبيل الذي وصل من خلاله إلى الحرية الواردة من العلم والثقافة الحديثة، بمفهوم القرن التاسع عشر، كل من راهب دومينيكي، وأستاذ حديث السن في قرية بإقليم روثينيا، وفتى يهودي من قرية يهودية في مكان يسميه المؤلف بمرارة "نصف آسيا". وتنتهي القصة بقراءة لـ "نشيد الفرح". وقد تُرجمت "شيلر" إلى العبرية حتى في مجاهل الشرق الأوروبي. إن هذا الدور التحرري للغة الألمانية هو الذي يفسر إصرار شيوخ مدينة برودي، التي كانت أهم المراكز اليهودية في غاليسيا (كان اليهود فيها 76٪ من السكان)، على الألمانية كلغة التدريس في مدارسها. وفي سنة 1880 وصل الأمر بهم إلى حد رفع الدعوى، التي كسبوها لاحقاً، أمام البلاط الإمبراطوري في فيينا، وذلك باستخدام حجة واهية تفيد أن الألمانية هي اللغة السائدة في غاليسيا.

لم يكن الأمر كذلك، إذ إن الأغلبية العظمى من يهود الشرق كانت تتكلم باليديش؛ وهي من اللهجات الألمانية التي كانت من بقايا رباطٍ بمجتمعٍ أوسع، والتي صارت آنذاك رمزاً للتباين اللغوي، تماماً كما الحال مع الإسبانية السفارادية بعد سنة 1492. كان من المفترض أن تتعايش لغة اليديش كلغة محكية مع اللغة الوطنية المكتوبة كما جرى مع بعض اللهجات الألمانية الأخرى، وكما هي الحال اليوم مع لغة شفايتزر دويتش، غير أن تلك اللغة كانت، خلافاً لمثيلاتها، عائقاً أمام الولوج إلى الحداثة، وكان عليها أن تمنحي لغوياً وأيديولوجياً بصفتها لغة أكثر المجتمعات رجعية وانغلاقاً. وهكذا فإن التخاطب بالبولندية أو الألمانية، وليس "جاكيت ألمانية"، أصبحت الوسيلة التي استخدمها رواد التحرر في وارسو لتمييز أنفسهم من الآخرين. وعلى كل حال، فإن أولاد المهاجرين الذين كانوا يتكلمون لغة اليديش وجدوا أنفسهم متخلفين في المدارس الألمانية بسبب مصطلحاتهم النحوية التي، وإن كانت صحيحة في اليديش، لم تكن كذلك في اللغة الألمانية المكتوبة. أمّا اليهود من أصحاب الثروة الأكبر، والذين كانوا طارئيين على مجتمعات مستقرة، فقد كانوا يميلون، وإلى درجة أشد، نحو التخلي عن معالم جذورهم المرئية والمسموعة. والمثال الأبرز لذلك هو في رواية آرثر شنتزler "در فيغ إنز فراي"، وهي رواية رائعة التعبير عن أدق التفاصيل في عملية استيعاب اليهود داخل مجتمع فيينا في أواخر القرن التاسع عشر، حيث يعمد السيد إهرنبرغ،

وهو تاجر ثري، إلى التخلي عن أحلام يهود فيينا الليبرالية الألمانية القديمة، وذلك حين يترد عمداً في صالون زوجته، وبحضور بعض الوجهاء من غير اليهود، إلى استخدام لغة اليديش.

كانت الهوة الفاصلة بين يهود الشرق المتكلمين باليديش وغير المستوعبين في مجتمعاتهم وبين يهود الغرب المستوعبين، والتي استمرت عبر الزمن، أمراً بالغ الأهمية، حتى هلكوا جميعاً في المحرقة. وعلى الرغم من أن هذه الهوة كانت ولا ريب شيئاً مألوفاً في أوساط المتعلمين وأحاديثهم، فإنه يبدو أنها اتخذت طابعاً رسمياً أول مرة في البوكوفينا في سبعينيات القرن التاسع عشر، إذ واجهت طبقة وسطى معتزة بنفسها، وعلى درجة عالية جداً من الثقافة، المحاولات الأولى (من جانب المشككين في عملية التحول نحو الألمانية) لإضفاء صفة قومية على اليهود، وذلك من خلال لغتهم الوطنية الذاتية؛ أي اليديش. ففي أعين اليهود المتحررين في وسط أوروبا كان يهود الشرق الأوروبي يمثلون العكس تماماً عما هم عليه، وما لا يريدونه لأنفسهم. فهؤلاء الناس مختلفون عنهم أيما اختلاف، حتى لأنهم ينتمون إلى فصيلة بشرية أخرى. وحينما كنت ولداً صغيراً في فيينا أستمع إلى حديث الكبار في السن، أذكر أنني سألت إحدى قريباتي الكبيرات: "ما هي الأسماء التي يتخذها هؤلاء اليهود الشرقيون؟" وقد سبب لها سؤالها بعض الخجل لأنها كانت تعلم أن عائلتنا، من آل غرون وآل كوريتشونر، أتت مباشرة إلى فيينا من بولندا النمساوية، كغيرها ممن أضحى من الشخصيات البارزة في المجتمع الألماني اليهودي، مثل رودولف موسه، وهاينريش غرايتز، وإيمانويل لاسكر، وأرثر روبن، الذين وفدوا إليها من بولندا البروسية.

مع ذلك، فقد كانت الهجرة الجماعية لليهود الشرق منذ أواخر القرن التاسع عشر هي التي قامت بالدور الأعظم في تغيير الأثر الذي خلفه اليهود في العالم الحديث. وعلى الرغم من الوجود المستبين للاستمرارية فإن التأثير اليهودي في العالم غير اليهودي، خلال القرن العشرين، ينتمي إلى درجة مختلفة من التأثير عن ذاك الذي كان عليه في إبان القرن التاسع عشر. إذ إن القرن الليبرالي/البورجوازي تحول إلى ما سماه يوري سلازكن عنواناً لكتابه "القرن اليهودي" (1) فقد أصبحت الجالية اليهودية في أميركا أكبر الجوالي بما لا يقاس في الشتات الغربي. وخلافاً لأي شتات آخر في أية دولة متطورة، كانت هذه الجالية تتكون، بسواها الأعظم، من فقراء اليهود الشرقيين، كما كانت أعدادها أكبر كثيراً من أن تندمج ضمن الإطار الألماني/اليهودي القائم والمتأقلم ثقافياً مع الولايات المتحدة الأميركية. وقد بقيت هذه الجالية مهمشة ثقافياً، سوى لربما في الحقل القانوني، حتى إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية (2) وكان من شأن التأثير الحداثي في السكان اليهود في بولندا وروسيا، الناجم عن يقظة جماعية للحس السياسي، والذي غذته الثورة الروسية، أن أحدث تغييراً في طبيعة عملية التحرر اليهودية، وصولاً حتى إلى شكلها الصهيوني. والأمر ذاته يقال أيضاً عن التوسع الهائل في الوظائف في مجال التعليم العالي، وخصوصاً في النصف الثاني من القرن العشرين، وصعود الفاشية، وقيام دولة إسرائيل، والانحدار اللافت للنظر في التمييز ضد اليهود في العالم الغربي منذ سنة 1945. إن الوجود الثقافي اليهودي على مثل هذا المقدار كان شيئاً يستحيل تصويره قبل الحرب العالمية الأولى، بل حتى قبل الحرب العالمية الثانية. كما كان يستحيل تصور حجم الجمهور اليهودي المدرك لهويته، والذي كان يشتري الكتب، الأمر الذي أثر بوضوح في شكل السوق الأدبية الجماهيرية، بدءاً بجمهورية فايمار، ولاحقاً في أماكن أخرى. لذا يجب التمييز بين هاتين الفترتين.

منذ البداية كانت مساهمة المتحررين من اليهود في المجتمعات التي حضنتهم كبيرة إلى درجة لا تتلاءم مع أعدادهم. غير أن هذه المساهمة، وبسبب طبيعة التحرر ذاتها، لم يكن لها خصوصية ثقافية محددة إذ كان اليهود، وبكل بساطة، يرغبون في أن يكونوا مجرد فرنسيين أو إيطاليين أو ألمان أو إنكليز. وفي المقابل، وحتى مع وجود شعور واسع النطاق معاد للسامية، كانت تلك المجتمعات في عصورها الليبرالية ترحب بوجود أقلية ثرية ومتعلمة تساند وتعزز قيم هذه المجتمعات السياسية والثقافية والوطنية. لنتأمل، مثلاً، حقل الفنون الترفيهية قبل الحرب

العالمية الثانية حيث كان اليهود في وضع مسيطر حقاً في فنون كمثل الأوبريت والمسرحيات الموسيقية في أوروبا وأميركا، والمسرح والسينما لاحقاً، وحتى في حقل الأغنية الشعبية على ضفتي الأطلسي. ففي القرن التاسع عشر كان أوفنباخ فرنسياً، وكان شتراوس نمساوياً. وحتى في القرن العشرين كان إيرفنج برلين أميركياً، وفي هوليوود في عصرها الذهبي، وحين كانت تحت السيطرة اليهودية، سوف نبحت بلا طائل عن أي شيء ما عدا ما كان يعتبره أمثال زوكور ولوي وماير قيماً أميركية مئة في المئة لدى البيض من الأميركيين، بل نبحت بلا طائل أيضاً عن أسماء نجوم سينمائيين توحى بجذور المهاجرين. وفي الحياة العامة في إيطاليا الموحدة أدت نسبة اليهود، البالغة 0.1% من عدد السكان، دوراً أعظم كثيراً منه في أية دولة أخرى، إذ بلغ عدد اليهود في مجلس الشيوخ سبعة عشر عضواً، وكان منهم رؤساء حكومة ووزراء، وحتى جنرالات في الجيش. ومع ذلك فإن التعرف عليهم بين سائر الإيطاليين كان من الصعوبة بحيث أنه لا نجد من المؤرخين من يحدد هوياتهم ويلفت النظر إلى صفتهم التمثيلية الواسعة جداً سوى في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

والأمر ذاته يقال عن الفنون العليا. فقد أنتج المؤلفون الموسيقيون اليهود موسيقى ألمانية وفرنسية، بينما كان تولي أمور قاعات الموسيقى وركن الأوركسترا من جانب الموسيقيين والعازفين المنفردين من اليهود إحدى أولى علامات التحرر في الشرق الأوروبي البائس. غير أن كبار عازفي الكمان والبيانو من اليهود في القرن العشرين عززوا مخزون الأعمال الموسيقية في الموسيقى الكلاسيكية الغربية، وذلك خلافاً لعازفي الكمنجة الوضيعة الغجرية ولموسيقى الجاز الأسود وموسيقى أميركا اللاتينية الذين وسعوا نطاقها. وفي لندن تركت حفنة من الكتّاب الإيرلنديين (وايلد، وشو، وبيتس) بصمات إيرلندية أوسع في الأدب الإنكليزي من أية بصمات خلفها كتّاب يهود في الآداب الأوروبية في القرن التاسع عشر. غير أنه، وفي فترة الحداثة، أصبحت المساهمة اليهودية في الأدب، كما في الفنون المرئية، أمراً أعظم بروزاً وتأثيراً. ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن الإبداع الحداثي في هذه الحقول جعل منها أمراً أشد جاذبية في أعين فئة من الناس لم تكن واثقة تماماً بمكانتها في العالم. كما قد يعود إلى أن أزمة مجتمعات القرن التاسع عشر جذبت بصائر وتصورات البشر من غير اليهود نحو التماثل مع الحالة المتقلبة لليهود أنفسهم. وشهد القرن العشرون تغلغلاً للثقافة الغربية من جانب أفكار مستمدة من والد التحليل النفسي، الذي كان شخصاً شديد الشعور بيهوديته. وصارت شخصية رجل يهودي شخصية محورية في رواية "أوليس"، كما أصبح توماس مان منكباً على موضوعات مشابهة. وها هو فرانز كافكا يخلف التأثير الهائل في القرن بعد وفاته. لكن، وفي المقابل، وتحت تأثير التفسيرات الأميركية، ولربما العالمية، لمسرحية آرثر ميلر "موت تاجر جوال" فإننا لا نكاد نلمح أهمية التجربة اليهودية التي بنيت عليها تلك المسرحية؛ وهو أمر أعاده إلى أذهاننا ديفيد مامت.

في الفنون المرئية، كان ثمة فنان واحد أو اثنان من المميزين، صودف أن كانا من اليهود (ليبرمان، وبيسارو). غير أن القرن العشرين شهد تحولاً نحو الكوزوموبوليتية لدى الشتات اليهودي إذ أضحى اليهود أكثر عدداً. ففي الفهرست الموضوع للمعرض العظيم بعنوان "برلين/موسكو، 1900 - 1950"، نجد أن 20% تقريباً من أسماء الفنانين تبدو كأنها يهودية، هذا إلى جانب من هم أعظم شهرة (موديليانو، باسكين، ماركوسس، شاغال، سوتين، إبستين، لبشتز، ليستزكي، زدكين). كما نجد بعضهم مميزاً وواضحاً في يهوديته، مثل شاغال. وفي يومنا هذا، تم إدخال بعض الألفاظ من لغة الييديش إلى لغة الصحافة بفضل الثقافة المتأركة لوسائل الإعلام. فكلمة "ختزبا"، على سبيل المثال، مفهومة من جانب معظم الناطقين بالإنكليزية، وهي لفظة لم تكن مستخدمة أو مفهومة خارج الأوساط اليهودية قبل أربعين عاماً من يومنا الحاضر.

أمّا بالنسبة إلى العلوم الطبيعية، فقد ازدادت المساهمة اليهودية زيادة مذهلة بعد سنة 1914، كما يتبين من سجلات جائزة نوبل ذات الصلة. غير أن هذه السجلات لا تمنحنا سوى القدر الضئيل من القدرة على التحديد

الوطني والثقافي، ومنظرو اليمين الراديكالي هم وحدهم الذين استطاعوا أن يربطوا تلك الأمور بعضها ببعض ليصلوا إلى ما سمّوه "العِلْم اليهودي". ولأسباب لا تخفى، كانت العلوم الاجتماعية والإنسانية أمراً مختلفاً جداً، إذ إن الموضوعات المتصلة بطبيعة المجتمعات وتركيباتها، كما بتقلباتها المحتملة في عصر من التغيير التاريخي العميق، في النظرية كما في التطبيق، كانت جميعها موضوعات جذبت إليها المتحررين اليهود، وبنسبة لا تتطابق مع أعدادهم، منذ البداية، وبدءاً بأصحاب سان سيمون وكارل ماركس. ويتطابق هذا الأمر مع النزعة اليهودية المفهومة إلى مساندة الحركات الداعية إلى التغيير الثوري العالمي، والتي كانت بارزة للعيان في عصر الحركات الاشتراكية والشيوعية ذات الإلهام الماركسي. بل في إمكاننا القول إن يهود الغرب في الفترة المبكرة من القرن التاسع عشر تحرروا بفضل أيديولوجيا لم تكن مرتبطة بهم، بينما حرر الأشكناز الشرقيون أنفسهم من خلال أيديولوجيا ثورية عالمية كانوا مرتبطين بها ارتباطاً وثيقاً. وهذا الأمر ينطبق حتى على الصهيونية المبكرة التي كانت شديدة التأثير بالماركسية، والتي أنشأت فعلاً دولة إسرائيل.

وبالتطابق مع ذلك، في القرن العشرين، فُتحت أو تطورت حقول جديدة من المعارف، كعلم الاجتماع مثلاً، أو علم التحليل النفسي، وذلك في بعض أرجاء أوروبا. وهذه المعارف قد تبدو أيضاً أنها أهلة بأعداد من اليهود تفوق نسبتها نسبتهم إلى مجموع السكان، كما الحال على سبيل المثال مع ذاك النادي الدولي لعازفي الكمان من المشاهير. غير أن الأمر الذي كان يميز هذه العلوم، كما غيرها ممن ساهم اليهود فيها أيما مساهمة، لم يكن الانتماء إلى عرق معين، وإنما افتقار تلك العلوم إلى الاستقرار المعرفي، الذي بدوره أدى إلى الإبداع. ويقول الكاتب دانيال سنومان، في كتابه "مهاجرو هتلر" الصادر سنة 2002، إنه وفي بريطانيا تحديداً "كان التأثير الأعظم للمهاجرين من أوروبا الوسطى على أشده، في غالب الأمر، في العلوم الجديدة نسبياً، كما في الحقول المعرفية التي تزواج بين العلوم كتاريخ الفن وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الجريمة والفيزياء النووية والكيمياء الحيوية، وكذلك في الحرف المتطورة بسرعة كالسينما والتصوير الفوتوغرافي والعمارة والراديو، وليس في حقول المعرفة الراسخة في القدم." وقد أضحى أينشتاين الوجه الأبرز للعلوم الطبيعية في القرن العشرين، لا لأنه يهودي، وإنما لأنه أصبح أيقونة لعلم في طور ثوري، وفي قرن شهد تقلبات فكرية مستمرة.

ولنا أن نتساءل: هل كانت مساهمة اليهود في العالم الأوسع للحضارة والمعرفة في الغرب أكثر بروزاً في بعض الأقاليم منها في البعض الآخر؟ لنأمل، مثلاً، جوائز نوبل في العلوم الرصينة. فبين 74 جائزة بريطانية نجد 11 جائزة نالها يهود، لكن هؤلاء جميعهم لم يكونوا من مواليد بريطانيا، سوى لربما واحد منهم. وبين 11 جائزة للروس منذ سنة 1917، نال اليهود 6 أو 7 منها، ومن المفترض أن يكونوا جميعاً من مواليد تلك البلاد. غير أنه، وحتى سنة 2004، لم ينل علماء إسرائيلون أية جائزة من جوائز نوبل في العلوم وفي أي بلد كانوا، على الرغم من أن إسرائيل تتمتع بأعلى المعدلات العالمية للأبحاث العلمية المنشورة قياساً بعدد الأفراد. لكن سنة 2004 شهدت جائزتين، نال إحدهما شخص من مواليد البلد، والأخرى نالها آخر من مواليد المجر. وفي المقابل، ومنذ قيام إسرائيل، نال الجائزة ثلاثة أشخاص، وربما أربعة، ينتمون إلى الجالية اليهودية من أصل ليتواني ومن سكان جنوب إفريقيا (وعدها 150.000 نسمة)، على الرغم من أنهم جميعاً كانوا خارج تلك القارة. كيف لنا أن نفرس مثل هذه الاختلافات الواضحة؟

ليس لنا هنا سوى الظن والتخمين. من الواضح أن الازدياد الهائل في المهن المتعلقة بالأبحاث العلمية هو عامل أساسي. ففي بروسيا، في سنة 1913، بلغ العدد الإجمالي لأساتذة الجامعات أقل من 2000، كما كان عدد الأساتذة الثانويين في المدارس العامة في ألمانيا نحو 4200 أستاذ. وليس من المحتمل ألا يكون لهذا العدد الضئيل من المناصب الأكاديمية في هذا الحقل أية علاقة بغياب اليهود المثير للدهشة عن لائحة أصحاب النظريات

الاقتصادية من مشاهير الأكاديميين قبل الحرب العالمية الثانية (باستثناء ريكاردو). وعلى الضد من ذلك، لا ريب في أن حقل الكيمياء، وهو الحقل الأبرز الذي نال فيه اليهود جوائز نوبل قبل سنة 1918، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بكون هذا الحقل هو الذي تم فيه استخدام الأخصائيين بأعداد كبيرة أول مرة. فقد استخدمت الشركات الألمانية الكيميائية الثلاث الكبرى وحدها ما يوازي 1000 شخص تقريباً. ومن أعمامي السبعة كان العم الوحيد الذي كان صاحب حرفة قبل سنة 1914 كيميائياً.

قد تكون المعايير المستخدمة هذه سطحية، غير أنها ليست بلا مغزى. من الجلي أنه لولا انفتاح العالم الأكاديمي الأميركي أمام اليهود بعد سنة 1948، ومن ثم التوسع الهائل لهذا الحقل، لما كان في الإمكان حدوث ذلك الطوفان من جوائز نوبل الأميركية التي نالها أهل البلد بعد سنة 1970. لكنني أعتقد أن العامل الأهم هو الانعزال، إن على الشكل الذي سبق التحرر أو بواسطة القومية (ناسيوناليزم) الإقليمية/الجينية. وقد يفسر هذا الأمر مساهمة إسرائيل المتواضعة نسبياً إذا ما أخذنا في الاعتبار حجم عدد سكانها من اليهود. لذا يبدو أن العيش مع غير اليهود، والتخاطب مع جمهور غير يهودي، هما حافز أساسي لعلماء الفيزياء بقدر ما هو لصانعي الأفلام. وفي هذا المجال ما زلنا نشاهد ما يلي: أن يكون المرء متحدرًا من بروكلين أفضل كثيراً من أن يكون متحدرًا من تل أبيب.

من جهة أخرى، وعلى افتراض وجود فرص متساوية، على الأقل نظرياً، فإن وجود قدر ما من التوتر في العلاقات بين اليهود والأغيار له فائدة أكيدة تاريخياً. كانت تلك هي الحال بوضوح في ألمانيا وإمبراطورية هابسبورغ، كما في الولايات المتحدة حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية بزم، وفي النصف الأول من القرن العشرين في روسيا/الاتحاد السوفياتي، كما في كل من جنوب إفريقيا والأرجنتين. إن المساندة التي قدمها اليهود لفئات أخرى تعاني التمييز الرسمي، كما في جنوب إفريقيا والولايات المتحدة، هي ولا ريب إحدى علامات ذلك التوتر، على الرغم من أننا لا نلمحه في المجتمعات اليهودية كافة. لكن حتى في دول التسامح الأوسع – أي في فرنسا الجمهورية الثالثة، وفي النمسا الغربية تحت حكم فرانز جوزف، وفي المجر أيام التحول الجماهيري نحو الاندماج المجري – فإن الأزمنة التي شهدت الدرجة الأعلى من الحوافز للمواهب اليهودية كانت، لربما، تلك التي شعر اليهود خلالها بحدود الاندماج، أي لحظة نهاية القرن عند بروسست الذي بلغ سن الرشيد خلال عقد درايفوس، وهو عصر شونبرغ وماهler وفرويد وشتنزلر وكارل كراوس. هل في إمكان يهود الشتات أن يندمجوا إلى درجة يفقدوا معها تلك الحوافز؟ يقول بعض المؤرخين إن هذا الأمر بالذات كان سائداً في صفوف اليهود الإنكليز المستقرين اجتماعياً في إبان القرن التاسع عشر. ولا جدال في أن اليهود البريطانيين كانوا غير بارزين في قيادة الحركات الاشتراكية والثورية/الاجتماعية، أو حتى في صفوف منظري تلك الحركات، إذ ليس لنا إلا أن نقارنهم بنظرائهم إلى الشرق من نهر الراين، وإلى الشمال من جبال الألب. إنني لست مطلعاً بما فيه الكفاية كي أصل إلى نتيجة حاسمة في هذا المضمار. ومهما تكن الحال، وصولاً إلى عصر هتلر والمحركة، فإنها لم تعد كذلك في يومنا الحاضر.

إن المفارقة السائدة في العصر الذي تلا سنة 1945 تكمن في أن المأساة العظمى في تاريخ اليهود كان لها عاقبتان مختلفتان أيما اختلاف. فمن جهة، أدت تلك المأساة إلى تركيز أقلية كبيرة من يهود العالم في دولة قومية واحدة، أي في إسرائيل، والتي بدورها كانت في يوم من الأيام نتاج التحرر اليهودي، كما تلك الرغبة الجامحة في الولوج إلى العالم ذاته كباقي البشر. وقد أدى هذا الأمر إلى تقلص في الشتات، وإلى تقلص شديد في الشتات في العالم الإسلامي. ومن جهة أخرى، تبع هذه المأساة، وفي معظم أصقاع الأرض، عصر من التقبل العام واللامحدود تقريباً لليهود، وذلك مع الغياب الفعلي لمعاداة السامية والتمييز كما سادت أيام شبابي، كما من الإنجازات اليهودية التي لا مثيل ولا سابق لها في حقول الثقافة والفكر والشأن العام. ولا يوجد أي سابقة تاريخية لانتصار عصر التنوير لدى الشتات اليهودي في العصر التالي للمحرقة. ومع ذلك، ثمة من يود أن ينسحب من عصر الإنجاز

هذا لينكفى مجدداً إلى الانعزال القديم الذي تهيمن عليه أورثوذكسية دينية متطرفة، وإلى انعزال جديد يتمثل في دولة ومجتمع منفصلين انفصلاً إثنياً وجينياً. وإذا حالف النجاح هؤلاء الناس، فأنا أعتقد أن هذا الأمر لن يكون في مصلحة اليهود، ولا في مصلحة العالم □.

(\*) مؤرخ بريطاني يهودي بارز.

(\*\*) المصدر: London Review of Books, vol. 27, no. 20, 20 October 2005.

### الهوامش

(1) نُشرت مراجعة لهذا الكتاب في (London Review of Books (17 March 2005 من جانب شيلا فيتزباتريك.

(2) تشتمل قائمة بـ 300 شخصية أميركية بارزة وضعت في سنة 1953 (Richard Morri's Encyclopedia of American History، على 12 يهودياً (4٪) ينتمون جميعهم، باستثناء ثلاثة (كون، رابي، غيرشوين)، إلى هجرة ما قبل ثمانينيات القرن التاسع عشر. ويوجد بينهم أربعة علماء (بواس، كون، ميخلسون، رابي)، وقاضيان (برانديس، كوردوزو)، ورئيسا تحرير صحيفتين (أوكس، بوليتزر)، و"مرب" واحد (فليكسنر)، وزعيم عمالي واحد (غومبرز)، وقطب من أصحاب رؤوس الأموال (غوغينهايم)، ومؤلف موسيقي (غيرشوين). هل قائمة كهذه، إذا ما وضعت بعد خمسين عاماً، ستخلو من اليهود في قائمة تضم ساسة وموظفين حكوميين كباراً وكتاباً وفنانين؟

(3) قبل ذلك كان هناك فقط 7 في الفيزياء والكيمياء، في مقابل نحو 25 – 30 في الأعوام الثلاثين التالية.

(4) التمييز في التعليم أُلغي عملياً بعد ثورة 1905. لكن حتى قبل ذلك كانت نسبة الطلاب اليهود في جامعة كييف 13.4٪، وفي جامعة أوديسا 14.5٪.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي

التالي: [majallat@palestine-studies.org](mailto:majallat@palestine-studies.org)

يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:

[http://www.palestine-studies.org/ar\\_index.aspx](http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx)